الملتقى الوطني الأول:

مظاهر الانفتاح الفكري والأدبي في إسهامات الأمير عبد القادر

الدكتور:سليم بوزيدي

الرتبة: أستاذ محاضر "أ" المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

البريد الإلكتروني: s.bouzidi@centre-univ-mila.dz

الهاتف المحمول: 0794563703 --0659391099

المحور الرابع: الرؤية الصوفية في فكر الأمير عبد القادر

عنوان المداخلة: التصوف في شعر الأمير عبد القادر

ملخص المداخلة:

أسعى، من خلال هذه المداخلة، إلى دراسة موجزة لموضوع التصوف، وما يتصل به من قضايا، في شعر الأمير عبد القادر، انطلاقا من التجربة السلوكية عند الأمير عبد القادر ، ومراحلها الثلاثة، ثم عرجت على الحديث عن التصوف عند الأمير، مع التركيز على مصطلحات صوفية؛ مثل مصطلح المشاهدة، ووحدة الوجود، والعشق والحب الإلهي، المدح الصوفي، مع إيراد الشواهد الشعرية التي تتجلى فيها الصوفية التجربة الصوفية، بشيء من الشرح والنقد والتحليل.

الكلمات المفتاحية: التصوف- شعر الأمير عبد القادر- التجربة الصوفية- المصطلحات الصوفية.

Intervention title:

Sufism in the poetry of Prince Abdul Qadir

Abstract:

Through this intervention, I seek to briefly study the subject of Sufism, and related issues, in the poetry of Prince Abdul Qadir, based on the behavioral experience of Prince Abdul Qadir, and its three stages. Then I returned to talking about Sufism according to the Prince, with a focus on the terminology. mystical; Such as the term observation, the unity of existence, divine passion and love, and Sufi praise, with poetic evidence in which Sufism manifests the Sufi experience, with some explanation, criticism, and analysis..

Keywords: Sufism - the poetry of Prince Abdul Qadir - the Sufi experience - Sufi terminology.

عنوان المداخلة:

التصوف في شعر الأمير عبد القادر

تمهيد:

تشكل الآثار الأدبية للأمير عبد القادر الجزائري جزءا لا يتجزأ من مجموع التراث الجزائري المعاصر ذي الأهمية العلمية والفكرية والثقافية، بالمفهوم الحضـاري والديني والعلمي، والتراث الأدبي بالمفهوم النقدي، وهو يمثل الثقافة العربية والإسـلامية في بلاد المغرب الأوسـط (الجزائر) والمغرب العربي عموما، وذلك بما يحتوي عليه من كنوز معرفية وأدبية نثرية وشعرية، ما تزال مادة خامة قابلة للبحث والتداول وصالحة للدراسة في مناهج التعليم ومستوياته المختلفة. وفي هذا يقول الدكتور فؤاد صالح السيد:"ويعتبر الدكتور أديب حرب من أحدث الذين كتبوا عن حياة الأمير عبد القادر العسـكرية. فقد قال في مقدمة أطروحته مشـيرا إلى الناحية الشـعرية الصـوفية عند الأمير بقوله: (فهناك مجالات كثيرة عند الأمير يمكن التكلم عنها، واتخاذها مواضـيع دراسـات، منها: الأمير الشاعر، نظم عبد القادر الشعر)"[1]؛ فهذه شهادة للدكتور أديب حرب ينقلها الدكتور فؤاد صالح السـيد باعتبارها شـهادة من باحث أكاديمي تناول جانبا من شـخصـية الأمير عبد القادر، وفي أثناء الدراسـة والبحث تعرف على هذه الجوانب التي لم تدرس بعد، أو درسـت لكنها لم تعط حقها من الدراسـة التي تليق بشخصية مثل الأمير عبد القادر.

والأمير عبد القادر الجزائري من الشخصيات العالمية الشهيرة، وهو واسع الثقافة متبحر في العلوم القولية والآداب، مطلع على ثقافات عصره؛ الدينيـة منها والإنـسانية، فهو ذو ثقافة موسوعية مترامية منها ما هو عقلي، ومنها ما هو نقلـي، كعلوم الدين من قرآن وفقه وحديث نبوي شريف. ومن ثقافته ما هو معاصر له كالفلسفة وعلم الكلام.

وقد دفعتني الحاجة المعرفية والأكاديمية إلى كتابة هذا البحث، الذي أحاول من خلاله أن أبرز بعض جوانب التراث الأدبي والفكري والديني عند الأمير عبد القادر، وذلك لما تحتله شـخصـية الأمير عبد القادر الجزائري من مكانة علمية وتاريخية، ومن أهمية في التراث العلمي والأدبي والديني الذي يعد مدرسـة أصـيلة في الكتابة وفي الشـعر، هذه المدرسـة لها من سـمات التميز والتفرد ما جعلها محط اهتمام من الدارسـين العرب وغير العرب من المستشرقين (المستعربين) الذين يهتمون بالتراث العربي الديني والأدبي.

1- التجربة السلوكية عند الأمير عبد القادر الجزائري:

من المهم أن نشير إلى مراحل التصوف عند الأمير عبد القادر؛ وقد تكلم الباحث سليمان عشراتي عنها واصفا إياها بالتجربة السلوكية بالمصطلح الصوفي، فالتصوف مراتب ومراحل، يسلكها الصوفي السالك لكي يسمى صوفيا، وفي هذا يقول سليمان عشراتي:"حين يقرر الأمير أنه اجتاز إلى حظيرة أهل الحال بواسطة امتطائه موج الانخطاف أو الجذبة، فلا شك أن ملابسة ذلك التحول الروحي الذي حدث له لم تكن بتلك البساطة التي قد يلوح لنا بها ظاهر العبارة، بل علينا أن ندرك إرهاصاتها القريبة والبعيدة لكي نعرف طبيعة تلك الطفرة الروحية التي اجتازت بالأمير إلى حظيرة أهل الكشف"[2]؛

من خلال هذا النص النقدي يشير سليمان عشراتي إلى ذلك التحول الذي طرأ على حياة الأمير عبد القادر بعد وقوعه في الأسر، عندما تحول من حياة الجهاد الأصغر أو جهاد العدو، إلى الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس. وهنا مركز التحول والانعطاف الكبير في حياة الأمير عبد القادر، حيث انكفأ على ذاته ليكتشف أغوار نفسه في ظل تجربته الصوفية، ليصير ضمن مسالك السالكين طريق الروحانيات والتجليات والكشوفات.

وقد قسم الدارسون حياة الأمير عبد القادر، إلى ثلاثة مراحل، أوردها عبد الرزاق بن السبع على النحو الآتي:

أ- المرحلة الأولى: بدأت هذه المرحلة بسفر الأمير إلى المشرق العربي مع والده؛ ويقول عبد الرزاق بن السبع عن هذه المرحلة أنها: "التي سافر فيها مع والده إلى بغداد بعد أداء فريضة الحج 1241هـ، وفيها زار ضريح القطب الرباني السيد عبد القادر الجيلاني، وأخذ الإجازة بالطريقة القادرية عن الشيخ محمود القادري نقيب الإشراف"[3]. وهذه المرحلة مهمة جدا إذ تشكل نقطة تحول في حياة الأمير إلى (مريد) له شيخ الطريقة.

ب – المرحلة الثانية: بدأت المرحلة الثانية بنهاية فترة الجهاد ووقوع الأمير في الأسر" فكان أسره في أمبواز (Amboise) من أهم المحطات في تصوفه"[4]. وما من شك في كون هذه المرحلة من أصعب المراحل في حياة الأمير، فقد ساءت نفسيته وضعفت معنوياته، ولم تعد له من حيلة إلا الصبر. وأصبح يميل إلى العزلة والخلوة والتأمل والتفكير بروحانية أعمق، مما خصب التجربة العرفانية لديه.

ج- المرحلة الثالثة: وهي مرحلة لا تقل أهمية عن سابقاتها، يصفها عبد الرزاق بن السبع، فيقول:" والتي أقام فيها الأمير بمكة حاجا لسنة ونصف مجاورا الأماكن المقدسة ولقائه الشهير بالشيخ محمد الفاسي مقدم الطريقة الشاذلية"[5]؛ وهذا اللقاء أتاح للأمير أن يتبادل مع شيخه مسائل التصوف والعرفانيات.

هذه هي أهم المحطات والمراحل التي مر بها الأمير عبد القادر، والتي نبين من خلالها أم التحولات التي طرأت على الشخصية الروحية والدينية والثقافية للأمير عبد القادر .

2- التصوف وموضوعاته عند الأمير عبد القادر الجزائري:

قبل الحديث عن التصوف وموضوعاته عند الأمير عبد القادر يتعين علينا أن نذكر تصوره للتصوف كمصطلح ثم نعرج على ذكر أهم القضايا أو الموضوعات التي تتصل به. وكما هو معلوم فإن التعريفات التي تعرضت للتصوف بالدراسة -كمصطلح وكقضايا- قد تعددت ، والباحث في مصادر التصوف يجد كما كبيرا من المفاهيم التي ارتبطت بمشاهير الصوفية وأعلامهم.

وللأمير عبد القادر الجزائري تصوره للتصوف باعتباره تجربة روحية عاشها الأمير، وهو يرى أن التصوف هو: "جهاد النفس في سبيل الله أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل االله"[6] . وإن كان هذا النص يتحدث فيه الأمير عن جهاد النفس فإن عبد الرزاق بن السبع قد عده في مفهوم التصوف عند الأمير، في معرض حديثه عن التصوف والشعر الصوفي عند الأمير عبد القادر [7] .

أولا – مصطلحات التصوف في شعر الأمير عبد القادر:

تشكل معرفة المصطلح الصوفي إحدى أهم الركائز المعرفية والعلمية، في دراسة التصوف، فكل علم يعرف بمصطلحات خاصة به تميزه عن غيره من الحقول المعرفية .وفي هذا السياق فإن الآثار الأدبية للأمير عبد القادر الجزائري تشتمل على مصطلحات صوفية كثيرة ومتداخلة مع مفاهيم متعددة، لها مصادرها وامتداداتها في المدارس الصوفية القديمة.

وفيما يلي بعض مصطلحات التصوف التي وردت في كتاب المواقف والديوان الشعري للأمير عبد القادر؛ ومنها:

1- المشاهدة: تعد المشاهدة من المصطلحات الصوفية التي اهتم الأمير عبد القادر بتفسيرها في كتابه (المواقف)، وقد تكلم على المشاهدة كمقام متقدمة من المقامات الرفيعة، وقليل من الصوفية من يصل إلى هذا المقام، ولكن الأمير عبد القادر قد توصل إلى حقيقة المشاهدة تجربة وفهما، حتى إنه شرح معناها عند شيخ

من كبار شيوخ الصوفية، حيث يقول مفسرا رأي شيخه ابن عربي:" قال سيدنا في هذا الكتاب قالت الطائفة هي المشاهدة تطلق بإزاء ثلاث معان منها مشاهدة الحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ومنها مشاهدة الخلق في الحق وهى رؤية الحق في الأشياء ومنها مشاهدة الحق بلا خلق، وهي حقيقة اليقين بلا شك ولا ارتياب وهذا المعنى الأخير "[8]؛ حيث حصر المشاهدة في معان ثلاثة، هي:

- مشاهدة الحق، وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد.
- مشاهدة الخلق في الحق، وهى رؤية الحق في الأشياء.
- مشاهدة الحق بلا خلق، وهي حقيقة اليقين بلا شك ولا ارتياب.

ولا ريب في أن هذه المصطلحات العرفانية قد أخذت حيزا لا بأس به في فكر الأمير عبد القادر وفي مؤلفاته وبخاصة كتابه: (المواقف)؛

2- وحدة الوجود:

تشكل قضية وحدة الوجود من القضايا الصوفية والفلسفية التي تنازعت أهل العلم والفلسفة والدين. وللأمير عبد القادر قصيدة شعرية بعنوان "وحدة الوجود"، قال فيها: [9]

أنـــا حـــق، أنـــا خلـــق — أنـــا رب، أنـــا عبـــد
أنـــا عـــرش، أنـــا فـــرش — وجحـــيم، أنـــا خلـــد
أنـــا مـــاء، أنـــا نـــار — وهـــواء، أنـــا صـــلد
أنـــا كـــمٌّ، أنـــا كيـــف — أنـــا وجـــدٌ، أنـــا فقـــد
أنـــا ذاتٌ، أنـــا وصـــف — أنـــا قـــربٌ، أنـــا بعـــد
كـــل كـــون، ذاك كـــوني — أنـــا وحـــدي، أنـــا فـــرد

حيث يكرر ضمير الأنا أو المتكلم عشرين مرة، في تراكيب إسمية قصيرة تتكون من: (مبتدإ+ خبره)، محاولا تقرير اتحاده مع جملة من الألفاظ ذات المعاني الضخمة والكبيرة على العقول، والتي لا يمكن استيعابها على الشكل الآتي: (أنا حق)، (أنا خلق)، (أنا رب)،(أنا عبد)، (أنا عرش)، (أنا فرش وجحيم)، (أنا خلد)، (أنا ماء)، (أنا نار وهواء)، (أنا صلد)، (أنا كمّ)، (أنا كيف)، (أنا وجد)، (أنا فقد)، (أنا ذات)، (أنا وصف)، (أنا قرب)، (أنا بعد)، (أنا وحدي)، (أنا فرد)؛ إذا تأملنا خبر المبتدإ في هذه التراكيب الاسمية وجدناه مصطلحا من مصطلحات الصوفية، ولا يمكننا أن نحدد مفهومه بدقة؛ إذ الخوض في معانيها يفتح أبوبا عديدة للتأويلات الدينية والفلسفية والكلامية. غير أنها تصب لدى الأمير في وحدة الوجود.

يقول الأمير عبد القادر: [10]

لا تعجبوا من حديثي جل عن عجب حقيق قولي لا لغو ولا كذب
ولدت جدي وجدتي وبعدهما أبي تولد عن أمي وأيّ أب
وبعد ذا ولدوني بعد كوني أنا ووالدي البر توأمان في صلب
وكنت من قبل في الحجور ترضعني بطيب ألبانها الأمات لا ترب
وليس يدري الذي أقول غير فتى قد جاوز الكون من عين ومن رتب

وردت هذه المقطوعة الشعرية في "الموقف الخامس والأربعون بعد الثلاثمائة"، من مواقف الأمير عبد القادر . وقد سأله تلاميذه وإخوانه أن يفسر لهم معاني الأبيات، فأجابهم بقوله:" ولدتُ جدي من حيث أن كل شيء كان سببا أو شرطا في ظهور شيء كان أبا له من ذلك الوجه، وقد يكون الابن عين الأب لكونه له عليه ولادة من وجه، وقد يكون الأب عين الابن كذلك"[11] .

ثم راح يسوق بعض الشواهد الشعرية لكبار الصوفية، والتي تؤيد موقفه هذا أو تشرحه. فقال:

"ومن هذا المقام يقول ابن الفارض- رضي الله عنه-[12]

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهدا بأبوتي

وقول الحلاج رضي الله عنه: [13]

ولدت أمي أباها إن ذا من أعجوباتي
وأبي طفل صغير في حجور المرضعات"

يقول سليمان عشراتي:"مقطوعة (لا تعجبوا) تطرح فلسفة الشاعر وقوله بوحدة الوجود. وقد أخذت سياق الأحجية بسبب غموض فكرتها المؤمنة بأن المخلوقات الإنسية مترابطة في وجودها، وأن الأولية والتسلسل السلالي هو ظاهرة لا علاقة لها بحقيقة الخلق ووحدة الكينونة، فلا غرابة وفق هذه النظرة، أن يكون الولد جدا سبق ميلاد أسلافه الأولين بدهور "[14] ؛

وهذا التفسير للمقطوعة الشعرية يعرض فيه سليمان عشراتي فكرة من أفكار الصوفية في شعر الأمير عبد القادر، والتي تعد من أهم المصطلحات أو المقولات المتعلقة بالنزعة الصوفية في المذاهب الصوفية التي أثرت في فكر الأمير عبد القادر، ألا وهي (فكرة وحدة الوجود). وقد وصفها الدكتور سليمان عشراتي بالغموض وبالأحجية.

ويعلق سـليمان عشـراتي على فكرة الوجود قائلا:"إنها فكرة ترى المخلوقات ذاتا واحدة موصـولة بالخالق فالطينة التي فطرت منها النفوس واحدة والطابع الرباني فريد، والسـيولة الزمانية لا دخل لها في مشـيئة الله القاضـية بذلك. وقد رأينا هذه النظرة تتردد في أشـعار أهل السـلوك من أمثال ابن الفارض وابن عربي وآخرين." [15]؛ وقد أشـار سـليمان عشـراتي إلى نقطة ذات أهمية كبيرة في أثناء تعليقه على فكرة وحدة الوجود، ألا وهي المصـادر التي اسـتقى منها الأمير عبد القادر هذه الفكرة؛ كونها وردت في أشـعار أهل السلوك من شعراء الصوفية: ابن الفارض وابن عربي.

ومن القصائد التي تشي بعقيدة وحدة الوجود عند الأمير عبد القادر قصيدة أنا مطلق:

2- العشق والحب الإلهي:

العشق الإلهي موضوع من أهم الموضوعات التي تضمنها شعر الصوفية، وفي ديوان الشاعر الأمير عبد القادر يشكل الحب الإلهي موضوعا شعريا حافلا بألفاظ المحبين والعاشقين للذات الإلهية، حيث يعبر العاشـق عن حبه لمعشـوقه وفنائه فيه. وللأمير قصـيدة عنوانها يدل على مضـامينها:(أنا الحبّ والمحبوب والحب جملة أنا العاشق المعشوق سرا وإعلانا)، وهو آخر بيت ختمها به الشاعر. يقول الأمير عبد القادر:[16]

عن الحبّ ما لي كلما رمت سلوانا — أرى حشو أحشائي من الشوق نيرانا
لواعج لو أن البحار جميعها — صببن لكان الحر أضعاف ما كانا
تئج إذا ما نجد هبّ نسيمها — وتذكو بأرواح تناوح ألوانا
فلو أنّ ماء الأرض طرّاً شربته — لما نالني ريٌّ ولا زلت ظمآنا

فالأمير لاشيء يسليه عن حبه، حتى ولو أراد أن يسلو عنه، فنيران الشوق تلهب أحشاءه وتذكي لواعجه. فلو صبت مياه البحار كلها على قلبه فلن تستطيع أن تطفئ ما به من لهيب الشوق والحب.

ويقول الأمير معبرا عن لواعج قلبه: [17]

وإن قلت يوما قد تدانت ديارنا — لأسلو عنهم زادني القرب أشجانا
فما القرب لي شاف ولا البعد نافع — وفي قربنا عشق دعاني هيمانا
وفي بعدنا شوق يقطع مهجتي — كتقطيع بيت الشعر للنظم ميزانا
فيزداد شوقي كلما زدت قربة — ويزداد وجدي كلما زدت عرفانا

وهكذا كلما اقتربت الديار بين الشاعر، وبين محبوبه ليتسلى برؤيته والاقتراب منه، زاده القرب شجوا وولوعة واشتياقا، إن أمر الشاعر غريب ومحير، فلا البعد شفاه من حبه، ولا قربه منه أراحه من لوعته، فقدره أن يبقى في عذاب وحرمان. يتطلع إلى حبيبه متلهفا إلى لقياه، فقد عز الدواء واستفحل الداء فامتلأت عيناه دمعا فلم يجد للصبر بدا. فكلما زاد عرفانا بمحبوبه زادت أشواقه وازداد عذابه.

ويخاطب قلبه ويبشره بعدم الشفاء، فيقول: [18]

فيا قلبي المجروح بالبعد واللقا ... دواك عزيز لست تنفكّ ولهانا
ويا كبدي ذوبي أسىً وتحرّقاً ... ويا ناظري لا زلت بالدمع غرقانا
أسائل عن نفسي فإني ضللتها ... وكان جنوني مثل ما قيل أفنانا
أسائل من لاقيت عنّي والهاً ... ولا أتحاشاهم رجالاً وركبانا
أقول لهم من ذا الذي هو جامعي ... ويأخذني عبدا مدى الدهر حلوانا
وأسألُ عن نجد وفيه مخيّمي ... وأطلب روض الرقمتين ونعمانا
منازل كانت لي مصيفا ومربعا ... غداة بها أدعى صبيا وشيبانا
ومن عجب ما همت إلا بمهجتي ... ولا عشقت نفسي سواها وما كانا
أنا الحبّ والمحبوب والحب جملة ... أنا العاشق المعشوق سرا وإعلانا

إن المتأمل في أساليب هذه الأبيات يجد أنها محملة بالأساليب الإنشائية ذات الوقع الإنفعالي مما يشي بالحالة النفسية المتأزمة للشاعر مع محبوبه ومعشوقه، مستعملا معجما مليئا بألفاظ العشق والعاشقين، لكنه يفصح في نهاية القصيدة عن طبيعة المحبوب والمعشوق في البيتين الأخيرين، فيتضح أن الشاعر يتغزل بذاته التي يرى فيها أسرارا لا يراها غيره من الناس حتى تنكشف لهم أسرار الوجود، ومعاني العرفان.

وفي التعليق على مضامين القصيدة تقول حورية رواق في معرض حديثها عن التصوف:" إذا ما وقفنا على ذات عبد القادر المتصوفة بهرنا بلغة الوجد الصوفي التي تتجلى في هيام العاشق للذات الإلهية، فيذكرنا بالحلاج واستخدامه للرموز الصوفية من مثل (القرب، البعد، العشق، المحبة، الظمأ، التوحد..)"[19]؛ حيث ركزت الدكتورة حورية رواق على أهم المصطلحات التي يركز عليها الدارسون- في العادة- لقضايا التصوف؛ فذكرت مصطلح الذات المتصوفة، ولغة الوجد الصوفي، والذات الإلهية، والرموز

الصوفية، وقدمت نماذج منها ك القرب، البعد، العشق، المحبة، الظمأ، التوحد. وهي في هذا النص تلخص الوجد الصوفي في شعر الأمير عبد القادر بشكل مبسط للغاية.

ويقول أيضا في الحب الإلهي: [20]

أوقـــات وصـــلكم عيـــد وأفـــراح يـا مـن هـم الـروح لـي والـروح والـراح
يـا مـن إذا اكتحلـت عينـي بطلعـتهم وحقّقـت فـي محيـا الحسـن ترتـاح
دبّـت حميّـاهم فـي كـل جـوهرةٍ عقـــل ونفـــس وأعضـــاء وأرواح
فمـا نظـرت إلـى شـيء بـدا أبـداً إلا وأحبـاب قلبـي دونـه لا حـوا
غرقـت فـي حـبهم دهـرا ألـم ترنـي فـي بحـرهم سـفن حقـا ومـلاح
مـاذا علـى مـن رآى يومـا جمـالهم أن لـيس تبـدو لهـم شـمس وإصـباح

يشكل الاستهلال جزءا مهما من مقدمة القصيدة الصوفية، لذلك يحرص الشاعر على تجويده وتحسينه حتى يكون مدخلا جيدا لقلب المتلقي، وتمهيدا للدخول في موضوعها الأساسي، وقد حرص الأمير عبد القادر على تكثيف عواطفه فيه مراعاة لهذا الأمر.

ويعلق عبد الرزاق بن السبع على مقدمة هذه القصيدة، بقوله:"يستهل عبد القادر قصيدته بالتعبير عن فرحته العارمة ولهفته الكبرى برؤية حبيبه الغالي، فقد تحقق له الوصال بعد عذاب وانتظار فحق له أن يحتفل بهذا اليوم الموعود المنشود، ففيه وصل بروحه وسعادته وهنائه فاكتحلت عيناه بطلعة الحبيب ذو الوجه الحسن الصبوح، فدبت في نفسه نشوة السكر وعمت الروح والجسد فهو فرح جذلان لا يرى من هذا العالم شيئا إلا وتجسدت فيه صورة حبيبه"[21].

ويستعين الأمير عبد القادر بالطبيعة الجامدة حتى يصنع منها عبارت مجازية لعلها تساعده على توصيل معانيه الغزلية وعواطفه، فيقول: [22]

جبـال مكـة لو شـامـت محـاسـنهم حنّوا ومن شـوقهم نـاحوا وقـد صـاحوا
شـهـب الـدراري مـدى الأيـام سـابحـة لـو أبصـرتـهـم لـمـا جـاءوا ولا راحـوا
لـو كنـت أعجـب من شـيء لأعجبني صـبر المحبين مـا نـاحوا ولا بـاحوا
أريـد كـتـم الـهـوى حيـنـا فـيـمـنـعـني تـهـتّـكـي كـيـف لا والـحـبّ فضّـاح
لا شـيء يثني عنـاني عن محبّتهم ولا الصـوارم فـي صـدري وأرمـاح

في هذه القصيدة يستخدم الشاعر فن المجاز الذي يساعده على تشخيص بعض الموجودات وجعلها شخوصا تتكلم وتشعر بالحب في قوله:(جبال مكة لو شامت محاسنهم... ومن شوقهم ناحوا وقد صاحوا)، ويعلق ممدوح حقي على هذا الأسلوب البلاغي بقوله:"استخدام التشخيص في هذا البيت والذي يليه وقيام ما لا عقل له مقام العاقل واستعمال جمع المذكر له كالإنسان تماما... ليس عن ضعف في التأليف أو جهل باللغة وقواعدها، بل لان الصوفية يرون في الموجودات صفة الله تقوم بها، ويعتقدون أنها تتحدث وتعقل وتفهم وتحس وتشعر كالإنسان تماما، لذلك يخاطبونها بصيغة العاقل"[23]. وهنا يمكن أن نقول إن قضية وحدة الوجود تكاد تسيطر على الخطاب الشعري ذي الملامح الصوفية الواضحة عند الأمير عبد القادر الجزائري.

3- المدح الصوفي:

المدح موضوع من موضوعات الشعر، وهو في الوقت نفسه من موضوعات الشعر الصوفي عند الأمير عبد القادر، حيث يجعل المدح صوفيا بما يضمنه من معاني التصوف، وله فيه قصيدة "رائية" يسميها عبد الرزاق بن السبع(القصيدة الصوفية) [24]، مدح فيها شيخه محمد الفاسي صاحب الطريقة الشاذلية، وتعد من أطول القصائد في موضوع التصوف، وعنونها بـ:(أستاذي الصوفي) قال يمدح أستاذه: [25]

أمسعود جاء السعد والخير واليسر ... وولّت جيوش النحس ليس لها ذكرُ
ليالي صدودٍ وانقطاعٍ وجفوةٍ ... وهجران ساداتٍ فلا ذكرَ الهجر
فأيامها أضحت قتاماً ودجنةً ... ليالي لا نجم يضيء ولا بدر
فراشي فيها حشوه الهم والضنى ... فلا التذَّ لي جنب ولا التذَّ لي ظهر
ليالي أنادي والفؤاد متيم ... ونار الجوى تشوي ما قد حوى الصدر
أمولاي طال الهجر وانقطع الصبر ... أمولاي هذا الليل هل بعده فجر
أغث يا مغيث المستغيثين والهاً ... ألمّ به من بعد أحبابه الضر
أسائل كل الخلق هل من مخبّر ... يحدّثني عنكم فينعشني الخبر

وقد كانت في الأمير عبد القادر نزعة صوفية تدفعه إلى التماس الصلات بالمتصوفين ومشايخ الطرق حيثما وجد إلى الصلة بهم فرصة، ومنهم شيخه الصوفي، ويصف عبد الرزاق بن السبع شوق الأمير وحبه للقاء شيخه، فيقول:"لقد بدأ هذا الحب بين الأمير وشيخه الصوفي قبل لقائهما هذا، فأولى خيوط هذه

المودة الآصرة بين الإثنين كانت معرفة سمعية، أي في علم اليقين حسب المصطلح الصوفي، ثم ارتقت إلى عين اليقين حين اللقاء الأول، لتصبح محبة ملازمة، وهي حق اليقين، أتاحت للأمير وشيخه أن يفتحا بابا في الشعر يمكن تسميته شعر الموائد"[26]؛ وهو شعر لم يسبق إليه الأمير عبد القادر في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر.

ثم يقول في وصف شوقه للقاء شيخه: [27]

إلى أن دعتني همة الشيخ من مدى ... بعيد ألا فادن فعندي لك الذخر
فشمّرت عن ذيلي الإطار وطار بي ... جناح اشتياقٍ ليس يخشى له كسر
وما بعدت عن ذا المحب تهامةٌ ... ولم يثنه سهل هناك ولا وعر
إلى أن أنخنا بالبطاح ركابنا ... وحطت بها رحلي وتم لها البشر
بطاح بها البيت المعظّم قبلةٌ ... فلا فخر إلا فوقه ذلك الفخر
بطاح بها الصيد الحلال محرمٌ ... ومن حلها حاشاه يبقى له وزر
أتاني مربي العارفين بنفسه ... ولا عجبٌ فالشأن أضحى له أمر

ومن عادة الصوفي أن يذيب شخصيته في شخصية المرشد الصوفي أو شيخ الطريقة من خلال شوقه إلى لقياه بأسرع طريقة، فيختار من العبارات المجازية كقوله: (وطار بي جناح اشتياق) حيث يصور الشوق في هيئة طائر يحمل الشاعر ويطير به ليس يخاف أن ينكسر، ثم يصور ركابه في قافلة مسافرة إلى الأماكن المقدسة مكة والبيت الحرام الذي يفتخر به الشاعر أيما فخر فهي بقاع تمحى فيها الذنوب وتغفر فيها الخطايا والأوزار. فإذا حل بها جاءه شيخه (مربي العارفين) بنفسه، وهذا ما يزيده فخرا.

ثم يذكر حوارا دار بينهما، فقد كان شيخه في انتظاره شوقا إليه وإلى لقياه منذ قديم الزمان، منذ أن كان ذرا في ظهر آدم عليه السلام، فيقول: [28]

وقال فإني منذ أعداد حجة ... لمنتظر لقياك يا أيها البدر
فأنت بنيي مذ ألست بربكم ... وذا الوقت حقاً ضمّه اللوح والسطر
وجدّك قد أعطاك من قدم لنا ... ذخيرتكم فينا ويا حبذا الذخر
فقبّلت من أقدامه وبساطه ... وقال لك البشرى بذا قضي الأمر
وألقى على صفري بإكسير سرّه ... فقيل له هذا هو الذهب التبر
وأعني به شيخ الأنام وشيخ من ... له عمة في عذبة وله الصدر
عياذي ملاذي عمدتي ثم عدّتي ... وكهفي إذا أبدى نواجذه الدهر

يقول عبد الباقي مفتاح معلقا على مضـــامين القصـــيدة الرائية في مدح الصـــوفي محمد الفاســـي الدرقاوي أســـتاذ الأمير عبد القادر:"ثم ذكر بقية القصـــيدة المؤلفة من 111 بيتا، وهي تدل على ضـــرورة صـــحبة المربي الحي لكل من أراد التربية الروحية الكاملة مهما كان مبلغه من العلم الظاهر. وما تم للأمير ذلك رغم ورعه وزهده وجهاده ومجاهداته ومعارفه ومواجيده، إلا بتحقيقه لهذا الشـــرط، ولم تطب ثمار صلته الروحية بالشيخ الأكبر إلا بصحبته لأستاذه محمد الفاسي الدرقاوي الذي لقنه الاسم الأعظم ورفعه إلى التحقق الكامل بالمعارف الأكبرية "[29] .

ثم يأتي الأمير إلى غرض الحكمة، حيث جعلها من أهم الصفات التي يتميز بها ممدوحه أو أستاذه محمد بن الفاسي، يقول عبد الرزاق بن السبع: "ويصل بنا المطاف إلى موضوع الحكمة ليؤكد الأمير على أن ممدوحه أهل لهذه الصفات الحميدة، وقد التزام كما نلاحظ في بداية كل بيت من أبياته حرف الميم كما هو الشأن عند شعراء الحكمة، الذي يفرغ الشـــاعر من خلاله تجاربه الطويلة وخبرته مع الحياة،، كما عرفنا عن كثب، حيث نشـأت لدى الأمير قناعة تامة بان مناط الفضـل وموضـع التمايز هو بقدر ما يمن االله به على الإنسان من علم نافع وإيمان راسخ وخلق حسن، وهذا ما حاول الأمير أن يحققه في ممدوحه الشيخ محمد الفاسي"[30].

فمن الحكمة قول الأمير عبد القادر في مدح شيخه الذي خبر أحوال الرجال وجربهم : [31]

ولا تســـألن عن ذي المشـــائخ غير من ... لـه خـبـرةٌ فـاقـت ومـا هـو مـغـتـرّ
تصـــفّـح أحـوال الـرجـال مـجـربّـا ... وفـي كـل مصـــر بـل وقـطـر لـه أمـر
فـانعم بمصـــرٍ ربّـت الشـــيخ يـافعـا ... وأكـرم بـقـطـر طـار مـنـه لـه ذكـر
فـمـكّـة ذي خـيـر الـبـلاد فـديـتـهـا ... فما طاولتها الشـــمس يوما ولا النســـر
بـهـا كـعـبـتـان كـعـبـة طـاف حـولـهـا ... حجيج الملا بـل ذاك عنـدهم الظفر
وكعبـة حجّـاج الجنـاب الـذي ســـمـا ... وجـلّ فـلا ركـنٌ لـديـه ولا حـجـر
وشـــتّـان مـا بين الحجيجين عنـدنـا ... فـهـذا لـه مـلـك وهـذا لـه أجـر

فالناس يحجون إلى كعبتين حســـب قول الأمير عبد القادر؛ الكعبة المشـــرفة وهي للحجاج جميعا ويستلمون الحجر الأسود، وكعبة الشاعر ليس بها حجرا أسود، يحج إليها الأمير (الشاعر)، ويستلم شيخه بذاته حتى ينال الأجر بتقبيل يده، وشتان بين الحجيجين؛ فهذا له ملك وهذا له أجر.

ويتعجب الشاعر ممن لا يسعى بجد لنيل رضا المحبوب، فيقول: [32]

عجبـــتُ لبـــاغي الســـير للجانـــب الـــذي نقـــدّس ممّـــا لا يجـــدّ لـــه الســـير

ويلقـــــي إليـــــه نفســـــه بفنائـــــه بصـــدقٍ تســـاوى عنـــده الســـر والجهـــر

فيلقـــى منـــاخ الجـــود والفضـــل واســـعا ويلقـــى فراتـــا طـــاب نهـــلا فمـــا القطـــر

ويلقـــــى رياضـــــا أزهـــــرت بمعـــــارف فيـــا حبـــذا المـــرأى ويـــا حبـــذا الزهـــر

ويلقـــى جنانـــا فـــوق فردوســـها العلـــى ومـــا لجنـــان الخلـــد ان عبّقـــت نشـــر

ويعلق فؤاد صـــالح الســـيد على رائية الشـــاعر، ويبدي ملاحظاته حول اتجاه الأمير في تصـــوفه، فيقول:"والأمير لم يتطرق في مدحه الصـوفي إلى النواحي المادية مطلقا، فلم يمدح شـيوخه بأوصـاف مادية كالجمـــال، والجاه والسعة وغيرها من الفضائل الجسمية العرضية، بل أكد في مدحه الصوفي على النواحي المعنوية الخلقية لا على غير أنواع المدح الأخرى، فكيف يمكن للأمير أن يمدح شـــيخه بفضـــائل دنيوية مادية"[33]؛ حيث استبعد الأمير ذكر الصفات المادية في مدح أستاذه، وهذا ما يميز مدحه على مدح غيره من الممدوحين كالملوك والأمراء وذوي الوجاهة.

خاتمة:

وفي ختام هذه المداخلة خلصـــت فيها إلى جملة من النتائج يمكن أن أســـجلها في جملة من النقاط على النحو الآتي:

- ✓ التجربة الصوفية عند الأمير عبد القادر تجربة متميزة تستحق الدراسة والعناية من النقاد والدارسين .
- ✓ يعد الأمير عبد القادر الجزائري أول شـاعر جزائري خاض في تجربة التصـوف؛ حيث كتب في ذلك نثرا ونظم شعرا فخلف وراءه تراثا أدبيا اشتمل على أهم فروع العلم والمعرفة الشائعة في عصره.
- ✓ تعدد الجوانب في شخصية الأمير عبد القادر الجزائري العسكرية منها والأدبية والدينية والتاريخية.
- ✓ كثافة المصـطلح الصـوفي في كتابات الأمير عبد القادر وبخاصـة النثرية منها؛ وكتابه (المواقف) خير كتاب تجلت فيه المصطلحات الصوفية بمحمولاتها الروحية والعرفانية.
- ✓ القرآن والسنة مصـدر مصـطلحات التصـوف في آثار الأمير عبد القادر ومرجعيتها واضـحة المعالم من الدين الإسلامي.

- ✓ أثر المتصوفة الأوائل في فكر الأمير عبد القادر واضح هو الآخر من خلال بعض المقولات العرفانية كوحدة الوجود التي تأثر فيها بابن عربي وغيره.
- ✓ كما كان لهذه المصطلحات مصدر فلسفي حيث أثرت تأملات الفلاسفة في الرؤية الصوفية للأمير عبد القادر .
- ✓ معظم المصطلحات الصوفية التي جاء بها الأمير عبد القادر تحمل دلالات الإفصاح عن مكونات الروح الصوفية واشتقاقاتها.
- ✓ قضية الوجود في التجربة الصوفية عند الأمير عبد القادر عبارة عن كيان قائم على أسماء الله الحسنى التي تشكل ثنائيات ومفارقات لا يمكن الخوض في كنهها ويمكن الإيمان بها كما جاءت في كتاب الله.

قائمة المصادر والمراجع المستخدمة في البحث:

- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، عناية عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، ط1، دار الكتب العلمية والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان،1971.

- عبد الرزاق بن السبع: أبعاد الرمز الصوفي في شعر الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الحاج لخضر باتنة، المجلد14، العدد 28، جوان 2013.

- عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، ط1، دار الكتب العلمية والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان،1971.

- الأمير عبد القادر:ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، شرح وتحقيق الدكتور ممدوح حقي،(د.ط)، دار اليقضة العربية للتأليف والنشر،(د.ت).

- فؤاد صالح السيد: الامير عبد القادر الجزائري: متصوفاً وشاعرا ، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،2007.

الهوامش والإحالات:

(1)- فؤاد صالح السيد: الامير عبد القادر الجزائري: متصوفاً وشاعرا ، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،2007، ص 12.

(2)- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، عناية عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، ط1، دار الكتب العلمية والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان،1971، ج2، ص ص 284.

(3)- عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، ط1، دار الكتب العلمية والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان،1971، ص 155.

(4)- عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، ص 154.

(5)- عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، ص 156.

(6)- الأمير عبد القادر: المواقف،ج1، ص 127.

(7)- ينظر، عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، المملكة العربية السعودية،2000، ص 151.

[8]- الأمير عبد القادر: كتاب المواقف في الوعظ والإرشاد، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق،سوريا،2010، ج3، ص ص 294 - 295.

[9]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، شرح وتحقيق الدكتور ممدوح حقي،(د.ط)، دار اليقضة العربية للتأليف والنشر،(د.ت)، ص 162.

[10]- الأمير عبد القادر: كتاب المواقف في الوعظ والإرشاد، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق،سوريا،2010، ج3، ص ص 294- 295.

[11]- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، عناية عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، ط1، دار الكتب العلمية والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان،1971، ج2، ص ص 284.

[12]- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، ج2، ص ص 284.

[13]- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، ج2، ص ص 284.

[14]- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، ج2، ص ص 284.

[15]- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، ج2، ص ص 284.

[16]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 157.

[17]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 157.

[18]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 157.

[19]- حورية رواق: شعر الأمير عبد القادر المضمون والتشكيل، مجلة مقاربات، جامعة الجلفة،الجزائر، العدد 03، المجلد04، ،2016، ص 92. رابط المجلة https://www.asjp.cerist.dz/en/article/43343.

[20]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 152.

[21]- عبد الرزاق بن السبع: أبعاد الرمز الصوفي في شعر الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الحاج لخضر باتنة، المجلد14، العدد 28، جوان 2013، ص ص68- 69.

[22]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 152.

[23]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 153.

[24]- ينظر، عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، ص 60.

[25]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 135.

[26]- عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، ص 128.

[27]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 135.

[28]- الأمير عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 135.

[29]– عبد الباقي مفتاح: بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، تقديم الدكتور عبد الإله بن عرفة، ط01، دار الكتب العلمية،2011، ص 229.

[30]– عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، ص 135.

[31]– الأمير عبد القادر:ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 142.

[32]– الأمير عبد القادر:ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص 143.

[33]– فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1985، ص 135.